عيد الصليب في الحبشة

بقلم جناب عبد الله افندي مخائيل رعد الصيدلي القانوني في بلاد الحبشة

اعظم عيد عند الاحباش عيد رفع الصليب الكريم — ويدعونهُ المسكل — وهو عندهم ليس فقط عيدًا دينيًا بل مدنيًا وعسكريًا ايضًا . ولذلك يقسمونهُ الى قسمين دينيّ فمدنيّ يحتفلون بالديني يوم وقوع العيد وبالمدنيّ في ثانيهِ . وفي ظهيرة كلا اليومين يخرج الامير الى ظاهر المدينة وتخرج القواد والضباط والعساكر كل شرذمة منها بعمّة رئيسها لابسين الملابس الحريريّة وحاملين الاسلحة والدروع الفضيّة والذهبيّة كلٌ حسب وظيفتهِ ورتبتهِ والقواد منهم يضعون على رؤوسهم تيجانًا من الفضّة او اكاليل من الشعر الاشقر ليتشبهوا بالاسود

فاذا كان اليوم الاول من العيد يخرج الامير الى سهل بالقرب من المدينة ويجلس على دكّة عالية والى جانبيهِ من شاء الفرجة من الافرنج . ثم تأتي بعد ذلك شراذم الرؤساء والقواد حاملين الرايات والاغصان ومترنمين بالاناشيد الحربيّة — وهي تشبه الاناشيد المعروفة عندنا بالحداء — فيمرُّون امام الامير ويحيّون الى الارض ثم يرمون اغصانهم وزهورهم بالقرب من عمود يُجعل في وسط السهل ويذهبون كل الى محلهِ واذ يكمل عدد القوّاد والعساكر تبدأ الحفلة الدينية وهي عبارة عن طواف يدور فيهِ الكهنة بافخر ما عندهم من الملابس البيعية حول كومة الاغصان والزهور وهم يترنمون بالاناشيد حسب عوائدهم وبعد ذلك يقفل القوم عائدين الى المدينة . ولمّا كان سموّ الرأس مكونين متنيًا في هذه السنة في اديس ابابا تصدَّر بالنيابة عنهُ سموّ نجلهِ البرنس تفاري وحضر الحفلة الدينية السابق وصفها

امّا اليوم الثاني فحدّث ولا حرج عن المهرجان الذي يأتيهِ الاحباش في السهول المصاقبة للمدينة وفيهِ يخرج الامير الى ظاهر المدينة وتتألف من حولهِ الالوف من الناس حتّى لا يبقى في المدينة والقرى المجاورة الّا الاولاد والنساء فخرج سموّ البرنس يحفُّ به اعوانهُ واركانهُ وموظفو الحكومة وقناصل الدول وبعض الجالية الاوربية وجلس على دكّة عالية . ثمّ جعل القواد والضباط يتواردون كل واحد بشرذمة من عساكره وهم

يترنمون بالاناشيد ويرقصون حتى اذا وصلوا على مقربة من الدكة الجالس عليها الامير خرّوا على الارض سجّدًا ثمّ انثنوا ذاهبين الى احد الطرفين وكان القوّاد باللابس الحريرية المزركشة حاملين الدروع الفضية والذهبية كل حسب رتبته وهو مشهد غريب في بابه عقبهُ استعراض الجيش والقاء الخطب ولعب الخيل

وهناك غرابة تُذكر شاهدتُها في القاء الخطب عند الاحباش وطلب الرتب . وهي تصير عندهم على هذه الصورة : اذا وصلت شرذمة امام الامير وجثت تقدّم منها الى الأمام من اراد التكلم ورفع سيفهُ او بندقيتهُ او ترسهُ بيده اليمنى الى اعلى ما يستطيع واخذ يرقص رقصاً افقياً ويقفز من موضع الى آخر وهو يصيح باعلى صوته موجهاً خطابهُ الى الامير . واليك ترجمة احدى الخطب التي القاها في هذا العيد احد الضبّاط الابطال الذي عاد منذ عهد قريب الى هرر من حملة الاوغادن وعلى رأسه بعض الجراح الدالّة على بسالته في الوغى فليتأمل القارئ الكريم في سذاجة اللغة الاعجمية من جهة آدابها وبلاغتها قال الخطيب : « ابتدري من انا ايها الراس مكونين انظر اليّ فاني لا اخفى عليك . انا انكرازماش دستا (١ وهذا سيفي يشهد لي . انظر الى الجراح التي في رأسي . فيها لستحق رتبة فيتورادي (اي رتبة قائد) خذ هذا السيف الذي لا يزينهُ غير قليل من الفضّة . خذه لا اريده — وهنا القى سيفهُ الى الارض امام الامير — بل انما اريد بدلاً منهُ سيفاً مذهّباً لاني انا جنديك الباسل » . قال هذا العبارة الاخيرة عشر مرّات ثمّ قبّل الارض واثنى زاحفاً

واذا احتشدت الجموع جميعها وتمّ ورود القوّاد كلهم وأُلقيت الخطب والطلبات قام بين ايدي الامير جندي من اقدم جنوده وانشد لهُ بعضاً من الاناشيد الحربية معدّدًا في خلالها المواقع التي انتصر فيها الامير بجيوشه الاباسل مواقع تشالانكو وكالديا وعدوى . ثم يجيء كاهن متردّ بحلّة حمراء وعلى رأسه غطاء ابيض وفوق الغطاء اكليل من زهر الحقول (وهو اشبه بكهنة البعل منهُ بكاهن النصارى) فيرفع الاكليل عن راسه ويضعهُ على راس الامير . ثم يتقدّم جندي ضابطاً بيده لجام فرس كريم مزين بالفضة والذهب فيستطى الامير صهوتهُ ويجري به في الميدان فيتبعهُ القواد

١) كرازماش رتبة في الجيش الحبشي بمثابة رتبة ضابط . اما كلمة دستا فهي اسم الرجل الذي يلقي الخطاب

والضبّاط والعساكر . وهناك يعلو الغبار ويشبه القوم في هجيتهم بلعب الخيل هجوم البرابرة في يوم الوغى وهي صورة حية لحروبهم يعقبها ثاني يوم ورود المئات الى المستشفى وعليهم الجراح في كل عضو من اعضاء اجسادهم

وبعد ان يعود القوم من ميدان البهرجة الى المدينة وهذا محطم الراس ومكسور الرجل وذاك مجروح الصدر ومخلوع اليد ومقاوع العين ونحو ذلك تقام الولائم في البلدة مدّة ثلاثة ايّام متوالية فيبسط السلطان ملء الساحة والطريق المؤدية لبيت الراس فيأكل القوم اللحوم النيئة وخبز الذرة والفلفل الحارّ ويشربون البوزا والططج (مشروب كحولي اهلي) والجعة المصنوعة من الذرة البيضاء

امّا انا فدُعيت في اليوم نفسه مع طبيب المستشفى الى مأدبة انيقة اديها حضرة الراس لتناصل الدول ووجهاء الافرنج فلاحظت انّ القوم آخذون في طريق التمدُّن لانّ المائدة كانت جامعة اسباب الاتقان الاوربي من انواع الآنية النفيسة والمأكولات الشهية والمشروبات الفرنساويّة اللذيذة والحلويات المتقنة وقد نحى ذلك طاهي قونسلاتو فرنسة (وهو من اعراب البادية) . وجلس على المائدة بعض من رؤساء الاحباش فاظهروا احتشاماً وترتيباً ممّا يشهد لهم انهم خطوا خطوة كبيرة في سبيل التمدن — لتداخلهم مع الافرنج ان في المعاشرة او في الاشغال — وقليل من الوقت كافل وكافٍ لتمدن هذه الاقوام التي لم تزل بحالة نصف الهمجيّة غير ان عندها كثيرًا من المبادي التي تسير بها الى الترقّي وخصوصًا الاقتداء بالافرنج

امّا المتخرجون منهم في مكاتب الرسالة الكاثوليكية فهؤلاء كلهم يتكلمون قليلًا الافرنسية وعوائدهم في منازلهم بها شيءٌ من الحضارة فهم انموذج لبقية اخوانهم الاحباش الذين يقتدون بهم شيئاً فشيئاً . فلا بد انّ الوقت وكثرة تداخل الافرنج بينهم سيزيل منهم بالتدريج همجيتهم لانّ المواصلات والوسائل قد سهلت وتوفرت وحري بهذه المجاهل الحبشية ان تصبح بلاد تمدن واقبال وقد جادت الطبيعة عليها وزيّنتها بحسن المناخ وجودة التربة وغزارة المياه